كسب هذا الموقع الذي كانت تتوارثه ذات العائلة، أباً عن جد، والتمسك بعدم التفريط به. وفي حكاية الصراع التاريخي بين الحسينيين والنشاشبيين، ما يمكن ان يضيء هذا الجانب(١٠).

بهذا نقترب، وان يكن بنوع من الايجاز والتبسيط، من الاشكالية التي نريد ان نضع اليد عليها، ونعتبرها الحقل الهام اكثر من غيره في اضاءة طبيعة التناقض الذي ميز العلاقة بين الرجلين، بما انهما ينطقان باسمي مرجعين متعارضين، في اطار الفكر والممارسة الايديولوجية الاسلامية. لقد كان من الضروري للمفتي، وهو الذي جاء الى قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية من نفس المؤسسة الدينية التقليدية التي اشرنا الى طبيعتها، وهو الذي ينبغي لنا نسجل له ذكاءه وقدرته الحادة التي استطاع بها ان يوسع هذه المؤسسة، من اطار صفتها الدينية الى ان تصبح المؤسسة التي تقود حركة وطنية واسعة النطاق وذات صلاحيات تتعدى الاطار الديني المرسوم لها(١١)؛ نقول، لقد كان من الضروري وهو يقوم بذلك، ان يرتاب من المغزى الذي كانت تنطوي عليه الدعوة القسّامية، ومن شخصية زعيمها، وخصوصاً من التوجهات التي تنطوي عليها. وهنا ربما يمكن تفسير الحادثة السابقة التي اشرنا اليها، ليس باعتبار ان المفتي كان معارضاً للعمل المسلح، كما حاول معظم المؤرخين ان يأخذ بذلك، وانما لكونه كان يحمل اصراراً على ان يبقى هو المهيمن الفعلي على كل ما يتعلق بنشاطها، وان يبقى هو، بما يمثل، صاحب القرار في ما يتعلق بالخيارات التي تطرحها الحركة الوطنية.

إن هذا الارتياب الذي كان ينظر من خلاله المفتي نحو التوجهات الايديولوجية والسياسية للقسّام وحركته، كان يعكس، في حقيقة الأمر، طابع هذا التناقض الذي بيّنا جوانبه وهو الأمر الذي كان يستدعي من جانب المفتي، وقد امسك بزمام قيادة الحركة الوطنية بيد، وباليد الأخرى بالمؤسسة الدينية الرسمية الوحيدة(١٢)، ان لا يتهاون مع أي اتجاه أو مشروع من خارج المؤسسة التقليدية التي يعبر عنها، يمكن ان يشتم فيه بذوراً لنزع المشروعية الروحية التي ينطق باسمها، او بذر الشكوك فيها. لقد كان الامر يتعلق بالدفاع عن المؤسسة الدينية. كما كان يتعلق، بذات القدر، بالدفاع عن موقعه الزمني في قيادة الحركة الوطنية. وهكذا كان على المفتي، وهو يخوض المعركة ضد خصومه التقليديين الذين ينازعونه مواقعه، في مرحلة بلغ فيها التعارض والانشقاق في صفوف الحركة الوطنية الفلسطينية ذروته، ان يسعى الى توظيف الحركة التي مثلها القسّام والصدى الشعبي الذي لاقته في المرحلة الأولى، طالما ان هذه الحركة قد اجهضت قبل ان تتمكن من نشر مشروعها ـ كما لو انها تمت بايحاء منه وتوجيهاته، وبتنسيق كامل معه. أما في المرحلة الثانية، مرحلة دفع الهجمات والانتقادات التي وجهت الى دوره في قيادة الحركة الوطنية بعد الهزيمة، فقد كان من الضروري ان يكون القسّام، واحداً من رجالاته، المقربين منه، وأحد اركان الحزب العربي؛ وهكذا كان لا بد للمفتي ان يصمت هو الآخر، كما فعل داعية اليسار قبل ذلك، عن الجانب الرئيس في شخصية الرجل الذي ظل يرتاب منه. ولكن إذا كان الثاني قد صمت عن ذلك مرة، فقد صمت الأول مرتين.

إذن، بعد أن انتهينا من استعراض الطريقة التي تعامل بها كل من داعية اليسار والناطق باسم المؤسسة الدينية التقليدية، نصل الى بحث الموقف الذي يتبناه داعية القومية الليبرالية. ولقد قلنا قبل ذلك، أننا لأسباب تقنية، سوف نؤجل بحث هذه الشخصية الثالثة الى الآخر. وهنا يتوجب علينا ان نوضح هذه الاسباب. ان في رأس الاسباب التي دعتنا الى